فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء

ليل أبيض

الشيخ/ محمد الغزالي

وينتهي سبح النهار الطويل، وتنقضي الصلوات المكتوبات، ويخلص كل امرئ بنفسه، قافلا إلى بيته ليستجم ويستريح، فهل ذلك ما يستقبل به محمدٌ الليل الوافد؟! لو أن الفلاسفة الإلهيين يصنعون في نهارهم بعض ما يصنعه محمد في ليله لكفاهم، ولحسب لهم كدحًا حسنًا. إن النبي العابد يبدأ بالليل مرحلة جديدة من مراحل الإقبال على الله!. وما أكثر ما رواه المحدثون عن أذكاره وأدعيته، فعن حذيفة وأبي ذر أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم أحيا وأموت». وعن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» (مسند أحمد).

وهذا الحديث شرح للآية الكريمة:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(الزمر: ٤٢)

والمؤمن في تدبره للآية والحديث معًا يشعر أن روحه في يد الله، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبةً من رب العالمين. قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور، فإن كان ذلك فهو يرجو الرحمة، وإن قام ليبدأ نهارًا آخر فهو يرجو أن يحيا في ضمان الله وحفظه. أترى في ذلك المنهج أثارةً من اعتداد وغرور؟! وعن البراء بن عازب، قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت.. فإن مت مت على الفطرة» (صحيح البخاري). عندما يُغمض المرء جفنه ويتهيأ للكرى يترك إرادته جانبًا لغيبوبة تطول أو تقصر. كثيرون يستسلمون للمجهول، أما المؤمن فيسلم نفسه لربه: يفوض إليه أمره، ويلجئ إليه ظهره!. إنه وحده الحافظ، مَن غيره يُؤمل في دفع ضر، أو جلب خير؟ وقد يفكر المرء وهو يستعد لمنامه في مراجعة ما أصابه طول يومه من ربح أو خسارة، وما عرض له من خطأ أو صواب، والواقع أن الدعوات التي علَّمنا إياها الرسول الكريم تُريح الأعصاب من هذا العناء، وتصل بمشاعر الرغبة والرهبة إلى مستقرها في جنب الله، وتجعل المرء قبل هجوعه يؤكد أمرًا واحدًا يناجي به ربه «آمنت بكتابك

الـذي أنزلـت، ونبيـك الذي أرسـلت» (صحيح البخاري)، تلك هي الفطرة التي يستريح المسلم فـي مهادها الوثير. وجاء في رواية أخرى أن النبي ﷺ كان يقـول إذا أوى إلـى فراشـه: «اللهم رب السـماوات ورب الأرض ورب العـرش العظيـم، ربنا ورب كل شـيء، فالق الحـب والنوى، مُنزل التـوراة والإنجيل والقرآن: أعوذ بك من شـر كل ذي شـر أنت آخذ بناصيته... أنـت الأول فليس قبلك شـيء، وأنـت الآخـر فليس بعدك شـيء، وأنـت الظاهـر فليس فوقك شـيء، وأنت الباطن فليـس دونك شـيء، اقـض عنِّى الديـن، وأغنني من الفقر» (مسـند أحمد). وفي رواية أخرى عن علي -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان يقول عنـد مضجعه: «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وكلماتـك التامة من شـر ما أنت آخـذ بناصيته، اللهـم أنت تكشـف المغـرم والمأثـم، اللهم لا يُهزم جندك، ولا يُخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك اللهم وبحمدك» (سنن أبي داود). وفـي رواية أخرى كان يقول: «باسـم الله وضعـت جنبـي، اللهـم اغفر لي ذنبي، وأخسـئ شـيطاني، وفـك رهانـي، واجعلنـي فـي النـدى الأعلى» (مسند أحمد). ونلحظ في هذه الأدعية كلها أن النبي الإنسان لهج بتمجيد الله والتحدث عـن عظمته. وقد قال -وهو يتأهب للنوم- كلامًا لا يسـتطيعه غيره مع حـدّة الانتباه وتألق الذهن، صـوّر به الألوهيـة في كمالهـا المطلـق، وغناها الذي يرنو إليه سـائر الخلـق. وهو بعد هذا الثناء الحار يسـتجمع ذل العبـاد كلهم، فيطلب حصنًا من الفقر، والدَّين، والإثم، ووسـاوس الشيطان. ويطلـب المغفـرة، والفـكاك مـن كل قيد أرضي يشـده إلى هـذه الدنيا؛ لأنه ينشـد الانضمام إلى النـدى الأعلـى، إلـى الرفيق الأعلى، إلـى من في السـماء. إنه ما بقـي في الأرض، أي مـا بقي بين الناس لا يريد أن تشـينه آفـات الحياة، لا يريد أن يسـوءه أحد، ومن ثم فهو يكـره الفاقة والرذيلة، ويـود مـن الدنيا ما يرشـحه لآخرة رفيعـة القدر. ولا تحسـبن أنه ـ عليـه الصلاة والسـلام ـ يأخذه النعـاس العميق بعـد هذه الضراعـات التي ناجى بها ربه، لا، ما هي إلا سـاعة ثم يستيقظ ليَلي أمر الله باستئناف التسبيح والتحميد، في جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار. ألم يقل الله له:

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾

(الإنسان: ٢٥، ٢٦)

إن قيام الليل فُرض عليه وحده. لينام من ينام، أما هو فقد قيل له:

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾

(المزمل: ٢- ٤)

والمأثور من سـيرته الشـريفة أنـه كان يقوم بالقـرآن أوقاتًا متطاولة. وحدث وهو في أخريات الحلقة السادسـة من عمره أنه قـام يصلي، وكان في البيت عبد الله بن عباس - وهو شاب في أوائل الصبـا - فرأى أن يأتم بالرسـول العابد، وشـرع الرسـول يقرأ ويقرأ، والشاب القوي يكابد طول القيـام، ويرقب انتهاء الصلاة، لكـن روح العابد المتبتـل قهـر الشـيخوخة ومضى يختم سـورة، ويبـدأ أخرى.. قال ابـن عباس: لقـد هممت أن أتركه يصلي وحده، وأنصرف. لقد تورمت أقدامه من طول الوقوف الخاشع بين يدي رب العالمين، لكن الفؤاد العامر بالحب أرهق الجسـد الزاحف إلى الستين، فهو لا يحس وخز الألم قدر ما يحس سعادة الاستغراق، وحلاوة العبادة، وكما قيل:

وإذا كـانـت الـنـفـوس كـبـارا
تـعـبـت فـي مـرادهـا الأجـسـام

وقد يسـتيقظ مـن الليـل ويرمي ببصـره إلى

الأفق، ويشعر بأن هذا السكون السائد له ما بعده؛ إن الناس سوف يصيحون بين باك وضاحك، وحي وهالك، ومهتد وضال، وواجد وفاقد!. إن الأقدار تعدّ لهم مع الغد المنتظر أشياء كثيرة، تُرى ما الموقف منها؟ إنه يقول: «سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا أُنزل من الخزائن؟ من يوقظ صواحب الحجرات ـ يعني نساءه ـ يا رب كاسية في الدنيا عارية فى الآخرة» (صحيح البخاري). إنه يستعد لليوم الجديد قبل أن يجيء بخيره وشره، يستعد له بعبادة يحشد لها أهل بيته، ينبغي أن يقمن الليل معه، وأن يتهيأن لليوم الآخر، إنه يوم يقلب الأوضاع المألوفة في عالمنا هذا، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة، ورب صعلوك هنا يكون ملكًا هناك. إن الآخرة هي دار الحق، ولها يجب الاستعداد. وقد ينام بعد ذلك، ولكن القلب المفعم بالتقوى يقظان، فإذا تقلب في فراشه، أو تهيأ لقيام ليلة قال: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت» (السنن الكبرى للنسائي). وكان الرسول ﷺ يُرغّب أمته في استقبال الليل بكيان نقي نظيف فيقول: «طهروا هذه الأجساد، طهركم الله تعالى، فإنه لا يبيت أحد طاهرًا إلا بات في شعاره ملك يقول: اللهم اغفر له فإنه بات طاهرًا» (الجامع الصحيح للسنن والمسانيد)، وطهارة البدن لا تغني عن زكاة الروح، والمرء يُعان على ليل طيب إذا دلف إلى فراشه، وقلبه مع ربه، وذكره على لسانه. عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة -رضي الله عنها-: «إذا أويتما إلى فراشكما، أو إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين»، وفي رواية: «التسبيح أربعا وثلاثين» (صحيح البخاري)، قال علي: فما تركته منذ سمعته من رسول الله. قيل له: ولا ليلة صفين؟! قال: ولا ليلة صفين.

لقد بقي على هذا الأدب مع الله ورسوله نيفًا وثلاثين سنة حتى ليلة المعركة الرهيبة بينه وبين خصمه، وكان عليّ كثير الهموم، بعدت عنه الراحة في هذه الدنيا، فلم يشعر بطعمها إلا يوم ذهب إلى ربه، وقد علقت عائشة على موته المؤلم بهذا البيت:

فألقت عصاها، واستقر بها النوى

كما قر عينا بالإياب المسافر

لكن الهموم لم تذهله عن ذكر الله قبل كل منام، بل لعله كان يهزمها ويفل حدها بهذا الذكر الموصول، وفي ترغيب الأمة كلها في طهارة البدن والروح لاستقبال الليل جاء عن أبي أمامة -رضي الله عنه-، سمعت النبي ﷺ يقول: «من أوى إلى فراشه طاهرًا، يذكر الله -عز وجل- حتى يدركه النعاس، لم يتقلب ساعة من الليل يسأل الله -عز وجل- فيها خيرًا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه» (سنن الترمذي). وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم أمتعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني، وانصرني على عدوي، وأرني فيه ثأري، اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين، ومن الجوع فإنه بئس الضجيع» (المستدرك على الصحيحين للحاكم). في هذا الحديث يرجو الرسول ربه أن يبقيه سليم الحواس طول عمره، وأن يمتعه بسمعه وبصره إلى أن يموت، كما يدعوه النجاة

من غلبة الديون وسطوة الجوع.

إن هذا النبي الإنسان ينشد الحياة القوية العزيزة البعيدة عن متاعب البأساء والضراء، وهذا حق كل إنسان صحيح الفطرة، ودعك من كذبة المتدينين الذين يرحبون بالآلام كأنها غاية تُقصد لذاتها، أو كأن الدِّين حرب على السلامة والكرامة.

وفي هذه الكلمات دعوة نريد تفسيرها وتحديد معناها، ونسأل قبل ذلك: هل بين الرسول وبين أحد من الناس عداوة شخصية؟ كلا، فقد كان أسمح الناس بحقه الخاص، وما كان يهيجه إلا أن تستباح حقوق الله، لينتصب حينئذ للدفاع عنها كأنه أسد غضوب، وهو عندما يسأل الله أن ينصره على عدوه فإنما يشرح بهذا السؤال قوله تعالى:

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

(البقرة: ٢٨٦)

إن الكافرين يتركون في أفئدة المؤمنين جراحًا دامية، خصوصًا المؤمنين الضعاف الذين اجتاحهم جبروت القوة فمزق شملهم، وأذل جانبهم، وضيّق عليهم الدنيا الواسعة، فهي في أعينهم كسَمِّ الخياط، من حق هؤلاء المؤمنين المقهورين أن يروا ثأرهم من عدوهم، وأن يروا كبرياء الكفر ممرغة في التراب. وذاك سر الأمر بقتالهم إلى أن تذهب دولتهم:

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾

(التوبة: ١٤، ١٥)

إن للفطرة الإنسانية معالم ثابتة لا يسوغ محوها، ولا جهلها، وهناك تدين مخبول، يؤخر العقل، ويجور على الطباع السليمة، ويتجاوز منطقها، وهذا التدين يرفضه الإسلام. ولعل من احترام الفطرة وتلبية أشواقها ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان رسول الله - منذ صحبته حتى فارق الدنيا - ينام حتى يتعوذ من الجبن والكسل، والسآمة والبخل، وسوء الكبر وسوء المنظر في الأهل والمال، وعذاب القبر، ومن الشيطان وشركه» (عمل اليوم والليلة لابن السني). وينام الرسول في هذا الليل الحي بالطهر والذكر، وما هي إلا ساعة حتى يصحو لصلاة الفجر، ويستعد لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى. يستقبلها بهذا الدعاء: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله لا شريك له، لا إله إلا هو، وإليه النشور» (عمل اليوم والليلة لابن السني).

❊❊❊